تمهيد

اتجاهات الغزل فى العصرين الجاهلى والأموى

هذا التمهيد عن الغزل فى العصرين الجاهلى والأموى ضرورة لابد منها ، لإعطاء فكرة عن الفترة السابقة للقرن الثانى الهجرى الذى ندرسه ، لكى يدرك الدارس فى كل خطوة يسيرها مدى التقليد أو الأصالة ، ومواطن القديم والجديد ومظاهرهما فى غزل القرن الثانى .

أولا : فى العصر الجاهلى :

سار الغزل الجاهلى فى أكثر الاتجاهات التى يمكن أن يتجه إليها الغزل فى كل عصر بخطى تبدو سريعة فى اتجاه ووئيدة فى آخر ، وهو تفاوت لا بد منه ، اقتضته ، بل فرضته ظروف الجاهليين البيئية والاجتماعية وما يتصل بهما من عوامل وأسباب . ويمكن تصنيف الغزل الجاهلى فى الاتجاهين التاليين :

١ ــ الاتجاه الحسى :

ويندرج تحته نوعان من الغزل الحسى ، الفاحش وغير الفاحش . أكثر الشعراء فى الأول من التغزل فى النساء ووصفهن أو وصف مفاتنهن وتشبيهها بأشياء مادية حسية نابعة من صميم البيئة الجاهلية وطبيعتها ومكوناتها ، ويلاحظ أنه كان النوع السائد فى الغزل الجاهلى ، وقلما خلا منه شعر شاعر ، ومن الأمثلة عليه قول الحادرة يصف عنق صاحبته وعينيها ووجهها[1] :

وتصدَّفت حتى استبتك بواضح ... صَلْتٍ كمنتصبِ الغزال الأَتْلع[2]

وبمقلتى حوراء تحسب طَرْفها ... وسنانَ ، حُرّةَ مستهل الأَدمع[3]

---

(١) المفضليات ١ / ٤٤ .

(٢) تصدف : انحرف . الواضح : الخالص ، كناية عن العنق . صلت : مشرق جميل . المنتصب : العنق . الأتلع : الطويل .

(٣) حرة : نعت للحوراء . مستهل الأدمع : مجرى الأدمع . والمعنى أنها حرة الوجه كريمته .

وقول المسيب بن علس يصف خد صاحبته وثغرها[١]:

إذْ تستبيك بأَصلتيٍّ ناعمٍ قامت لتفتنه بغير متاع[٢]
ومهاً يرف كأنه إذ ذقته عانيّـة شجت بماء يراع[٣]

وكثيراً ما نقع فى الغزل الجاهلى على مثل : « جيد كجيد الرئم » و « فرع أسود فاحم » و « غدائره مستشزرات » و « مُقلة شادن » و « ريّا الروادف » و « وجه كأنه الشمس » وما إلى ذلك من أوصاف وتشبيهات[٤] .

أما فيما يتعلق بالوصف المعنوى للمرأة فى الغزل الجاهلى فقليل لا يكاد يوحى باهتمام الجاهليين به اهتمامهم بالجانب المادى . وقد لاحظ الدكتور شكرى فيصل هذا وعلله بأن الجاهليين لم يكونوا يعرفون الثنائية فى جمال الخالقة وجمال الخلق ، لأن الجمال عندهم كان جوهراً واحداً لا فرق فيه بين جمال الجسد وجمال الروح[٥] ؛ وهو تعليل بعيد لانطوائه على فلسفة جمالية أبعد ما تكون عن عقلية الجاهلى وإدراكه وواقعه . والذى أراه أن أكثر الشعراء الجاهليين لم تتح لهم الفرص الكافية للعيش مع من كانوا يتغزلون فيهن ، أو التعرف عليهن من كثب . وإنما كانت أكثر فرصهم لقاءات عابرة ونظرات من بعيد ، وإلا لما اكتفوا بالأوصاف الخارجية للمرأة . غير أن الغزل الجاهلى لم يخلُ من لمحات وبدوات فى جمال المرأة المعنوى ، يشير إليها آحاد من الشعراء بين الحين والحين على نحو ما نرى عند عنترة والشنفرى[٦] .

وأما النوع الفاحش فكان من أبرز شعرائه امرؤ القيس والأعشى ، وتوجد

---

(١) المفضليات ١/٦١ .
(٢) الأصلتى : الخد الناعم .
(٣) يشبه ثغرها بالبلور لصفائه . عانية : أى خمرة منسوبة إلى « عانة » فى العراق .
شجت : مزجت . اليراع : القصب ، أى بماء جدول فى حافتيه قصب .
(٤) انظر على سبيل المثال : المفضليات ٢ / ١٣١ والغزل — تاريخه وأعلامه — لجورج غريب ١٢ — ١٥ و ٢٠ أيضاً .
(٥) انظر : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ١٥١ و ١٥٢ .
(٦) انظر : العصر الجاهلى لشوقى ضيف ٧٤ ومجلة المجلة العدد (١٠٤) آب ١٩٦٥ . ص ٦ فى مقال للدكتور يوسف خليف . والغزل تاريخه وأعلامه ٢٢ والغزل فى العصر الجاهلى ٦١ وما بعدها .

نماذج منه عند شعراء آخرين من مثل سحيم عبد بن الحسحاس وطرفة والمنخل وعمرو بن كلثوم وغيرهم . وفى هذا النوع صراحة وجرأة وحديث عن المغامرات والقصص الجرىء الفاحش مما يتنافى مع ما عرف عن الجاهليين من عادات وتقاليد، الأمر الذى شجع أحد الباحثين على الترجيح بأن الغزل المكشوف مكتسب من غير العرب[١]، وحدا بآخر إلى القول بأنه غير عربى النشأة وأن كل شعرائه وحتى عمر بن أبى ربيعة فى العصر الأموى إما أحباش وإما عرب متأثرون بالأحباش[٢] وليس لهذا الرأى الأخير ما يبرره وإن فيه لظلماً لطبيعة العرب فى الجاهلية . أفليس الجاهليون آدميين من لحم ودم ؟ ! أفلا يمكن أن يوجد بينهم — ولو جماعة معدودين — من قد يخرج على العادات والتقاليد ؟ إن أمثال هؤلاء كثر فى كل زمان ومكان . ويجب أن لا تغيب عن البال ونحن فى زحمة الحماسة للعادات والتقاليد ما كان من بعض السبل الميسرة للجهر والتغنى بمثل هذا الشعر الصريح الفاحش ؛ إذ كانت ثمة دُور للعبث واللهو والبغاء، وكان بعض الناس يُكره إماءه على البغاء وبذلك خبّر القرآن الكريم[٣] .

كما كان للقيان دَوْر على مسرح هذا الاتجاه فى نشر الابتذال والإسفاف واللهو والعبث وإن لم يصل إلى ما آل إليه الأمر فى العصر العباسى فيما بعد[٤]. ولذلك نجد قصصاً لبعض الشعراء معهن من مثل ما كان لامرئ القيس على سبيل[٥] المثال ؛ وكان لأولئك الجوارى وضع خاص فى المجتمع الجاهلى ؛ وليس ينكر تأثر بعض الشعراء بالبيئات التى كانوا يزورونها ويرحلون إليها ؛ فقد كان الأعشى مثلا يفد على ملوك الفرس والحيرة[٦].

وأصحاب هذا الاتجاه كثير و التحدث عن مغامراتهم ولياليهم وقصصهم مع

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى لعلى الهاشمى ١٣٦ .

(٢) الغزل فى العصر الجاهلى ٢٣٨ ، ٢٣٩ ثم ٢٢٤ — ٢٤٠ .

(٣) سورة النور . آية (٣٣) .

(٤) يراجع فى هذا : الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية فى المدينة ٥٢ — ٥٥ وفى مكة ٥٢ — ٥٧ والمرأة فى الشعر الجاهلى الهاشمى ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ والمرأة فى الشعر الجاهلى للحوفى — ٥٠٤ — ٥١١ والعصر الجاهلى ٧٢ والحب المثالى عند العرب ٩٨ و ٩٩ .

(٥) انظر : ديوان امرئ القيس ٨٦ و ٣٠٨ .

(٦) الشعر والشعراء ١/٢٥٨ و ٢٥٩ .

النساء بكل صراحة وجرأة ، فزعيمهم امرؤ القيس لا يمل الحديث عن مغامراته التى خلّفها فى معلقته عن دخوله الخدر وعن مواصلته حتى الحبالى المرضعات وكيف أنه كان يجيء صاحبته وقدنضت لنوم ثيابها . وفى غير المعلقة يقول[١] :

ويارُبَّ يومٍ قد لهوتُ وليلةٍ بآنسةٍ كأنّها خط. تمثال...
إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها تميل عليه هَوْنةً غير مِجْبَال[٢]
سموت إليها بعدما نام أهلها سموّ حَباب الماءِ حالا على حال

إلى أن يقول :

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هَصَرْت بغصن ذى شماريخَ مَيال[٣]
وصِرْنا إلى الحسنى ورقّ كلامنا ورُضْتُ فذلّت صعبة أى إذلال

وفى أماكن أخرى من ديوانه يتحدث عن دخوله البيوت على البيض الجُمّ عظامها وعن مواعدة النساء له بعد الهدوّ[٤]. ثم كيف كان يغتبق السرور ويبيت وقد مطر الصّبا[٥] .

أما الأعشى فقد كان كما يقول ابن سلام يتعهر ولا يبقى على نفسه ولا يتستر[٦]، وكان غزله يفيض بالشهوة العارمة ويصدر عن حسية نهمة ويرسم صورة لطبقة القيان التى كان غارقاً فيها إلى أذنيه[٧] ، يقول[٨] :

وأقررت عينى من الغانيا ت إمّا نكاحاً وإمّا أُزَنْ[٩]

---

(١) ديوان امرئ القيس ٢٩ — ٣١ .
(٢) الهونة : اللينة اللطيفة . المجبال : العظيمة الخلق . مأخوذ من الجبل .
(٣) أسمحت : انقادت وسهلت بعد صعوبة وامتناع . هصر : جذب ومد . الغصن هنا الجسم والشماريخ الشعر لتداخله وغزارته .
(٤) ديوان امرئ القيس ١٧١ .
(٥) المصدر السابق ٢٣٠ — ٢٣١ ثم انظر ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٦) طبقات ابن سلام ٣٥ .
(٧) انظر فى هذا : مقدمة ديوان الأعشى لمحمد محمد حسين صرق ومجلة المجلة . العدد (١٢٦) حزيران ١٩٦٧ ص ١٠٢ من مقال ليوسف خليف .
(٨) ديوان الأعشى ١٧ .
(٩) أزن : من الزنى .

من كل بيضاء ممكـــورةٍ لها بَشَرٌ ناصع كاللبن[١]

تُعاطى الضجيع إذا أقبلتْ بُعَيْدَ الرقاد وعند الوسن

وله فى غزله مغامرات كثيرة أشهرها ما جاء فى قصيدته المشهورة (رحلت سمية . . .) من وقائع تشبه مغامرات امرئ القيس[٢] ، وقصيدته فى (قُتيلة) التى وصفها وصفاً دقيقاً فى أعضائها وحركاتها متفضلة فى ثياب النوم ومنبطحة على الأرض[٣]. وكذلك كان سحيم الذى صرح فى أكثر من موضع من ديوانه بشق الأردية. والخروج مع النساء بعد إخراجهن من خدورهن وما كان يجرى له معهن[٤].

٢ – الاتجاه العفيف :

ووجد الغزل العفيف فى الجاهلية وإن كان أقل كمًّا مما كان عليه عند عذرى الأمويين ، إذ ليس هو وليد العصر الأموى كما يذهب عدد من الدارسين المعاصرين من مثل موسى سليمان[٥] وأحمد عبد الستار الجوارى[٦] وشكرى فيصل[٧]. ويمكن عدّه نواة وأصلا للاتجاهين العفيفين فى العصرين الأموى والعباسى . وليس ينكر أنه ازدهر واستوى على سوقه فى العصر الأموى ؛ ثم «اكتملت له سماته المميزة واستقرت تقاليده ومقوماته التى اكتسب معها صورته الأخيرة وشكله النهائى الثابت»[٨] .

عرف العصر الجاهلى جماعة من المتيمين الذين اقترنت أسماؤهم بمحبوبات معينات من مثل : المرقّش الأكبر وأسماء[٩] ، والمرقش الأصغر وفاطمة[١٠].

---

(١) المكورة : المتكتلة الأعضاء من اللحم مع دقة العظام . البشر الجلد .

(٢) ديوان الأعشى ٢٧ .

(٣) ديوان الأعشى ٣٥١ – ٣٥٢ ثم انظر أيضاً : ٦٩ ، ٨٣ ، ١٧١ وغيرها .

(٤) انظر : ديوان سحيم (طبعة دار الكتب) ١٦ .

(٥) الحب العذرى ٢٥ ، ٥٤ .

(٦) الحب العذرى ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ والشعر فى بغداد ٦١ .

(٧) تطور الغزل ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٨) الحب المثالى عند العرب ٥ – ٦ ثم انظر أيضاً ٦٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٠٠ ، ١٠٤ والعصر الجاهلى ٢٣٦ .

(٩) الشعر والشعراء ١ / ٢١٠ – ٢١٣ والأغانى ٦ / ١٢٧ وتزيين الأسواق ٢/ ٢١٩ – ٢٢٥.

(١٠) الشعر والشعراء ١ / ٢١٤ – ٢١٧ والأغانى ٦ / ١٣٦ .

ومالك بن الصمصامة وجنوب[١] ، وعبد الله بن العجلان وهند ،[٢] وعمرو بن كعب وعقيلة ،[٣] وعبد الله بن علقمة وحُبيشه[٤] ، وعروة بن حزام وعفراء[٥] ؛ وكان أكثرهم شهرة عنترة وعبلة .

كان لأولئك العشاق قصص لا تقل عن قصص العذريين الأمويين ؛ وليس ينكر أن الرواة بالغوا فى نسج كثير منها وتزيدوا فيه ؛ وليس بغريب أن يقع الدارس على تشابه كبير فى بعضها ، فالمرقش الأصغر لما لحق بفاطمة بعد زواجها حمله الرواة حملا إلى الكهف الذى ترد عليه غنم المرادى زوجها ليضع خاتمه فى لبن الراعى ويُحمل إليها مثل ما حمل خاتم عروة إلى عفراء لما نزل عند زوجها بالشام . ثم إن قصة عبد الله بن العجلان وهند تتفق هى وقصة قيس ولبنى من حيث إن كلاً من العاشقين تزوج من محبوبته إلى حين ، ثم طلقها لضغط عائلى . وتختلفان فى أن عبد الله لم يتزوج بعد طلاق هند بالرغم من أنها تزوجت . أما قيس فقد شاءت الأعيب الرواة أن يعود إلى لبناه بعد تنازل زوجها الثانى له . غير أن تزيدات الرواة لا يمكن أن تنفى الصورة العامة لهذا القصص ، يقول الدكتور يوسف خليف : « وإنما دخل العبث والتزيد والخيال فى التفاصيل والحواشى ، وحسبنا هذا الإطار السليم مادة صالحة وكافية أيضاً للبحث والدراسة »[٦] . ومن الأدلة التى يقوم عليها هذا الزعم أيضاً ما ورد من ذكر لبعض أولئك العشاق الجاهليين فى غزل الشعراء الأمويين والعباسيين من مثل جرير[٧] ، وجميل بثينة[٨] ، وبشار بن برد[٩] ،

---

(١) تزيين الأسواق ٢ / ٢٠٤ – ٢٠٨ .

(٢) الأغانى (ساسى) ١٩ / ١٠٢ وتزيين الأسواق ٢ / ١٨٨ – ١٩٦ .

(٣) تزيين الأسواق ٢ / ١٦٧ .

(٤) الأغانى ٧ / ٢٨٠ وتزيين الأسواق ٢ / ٢٠٨ – ٢١٢ .

(٥) الشعر والشعراء ٢ / ٦٢٢ والأغانى (ساسى) ٢٠ / ١٥٢ .

(٦) الحب المثالى عند العرب ٨ ثم انظر ٦ ، ٧ أيضاً . والحق أن الدكتور يوسف خليف رسم صورة أمينة واضحة لأولئك العشاق تغنى عن التوسع فى الموضوع ، يراجع كتابه (٦٥ – ٧٨) .

(٧) تزيين الأسواق ٢ / ١٦٧ .

(٨) ديوان جميل (بشير يموت) ٢٣ ، ٢٦ .

(٩) ديوان بشار ٢ / ٣١٢ ، ٣١٣ و ٣ / ٢٢٨ .

وأبي عيينة[١] ، والعباس بن الأحنف[٢] ، والبحتري[٣] .

أمّا شعرهم فبالرغم من قلته بالنسبة لزملائهم الأمويين فيدل على حب مخلص وعواطف صادقة ومشاعر ملتهبة . يقول المرقش الأصغر[٤] :

أفاطم لو أن النساء ببلدةٍ وأنت بأخرى لا تبعتك هائما

ويقول عروة[٥] :

وإني لتعروني لذكراك روعة لها بين جلدي والعظام دبيب
لئن كان برد الماء أبيض صافياً إليَّ حبيباً ، إنها لحبيب

كما أنهم تحملوا المخاطر والأهوال وتجشموا الصعاب كثيراً في سبيل محبوباتهم حتى تكالبت عليهم أدواء الهيام وأوصابه وألمّ بهم اليأس والقنوط مراراً ، يقول صاحب حبيشة[٦] :

فإن يقتلوني يا حبيش فلم يدع هواك لهم مني سوى غلة الصدر
وأنت التي أخليتِ لحمي من دمي وعظمي ، وأسبلت الدموع على نحري

وتظهر في غزلهم مرارة الحرمان والألم والشكوى ، فمالك بن الصمصامة كان يشكو كثرة الرقباء والعذال ، وعروة كان يدعي نحول الجسم ودميمة خفقان القلب. ولكن شعرهم لم يخل من بدوات حسية لا تتخطى اللمس والتقبيل أو تمنيهما ، وهي ناحية التفت إليها عدد من الدارسين المعاصرين ممن سنشير إلى بعضهم في الاتجاه العذري الأموي ، وممن أشار إليها عند الجاهليين الدكتور يوسف خليف الذي يردها إلى الطبيعة الإنسانية التي لا يمكن أن تصل إلى أعلى مرتبات الكمال المثالية

---

(١) تزيين الأسواق ٢ / ١٦٧ .
(٢) ديوان العباس بن الأحنف ١ و ٢ .
(٣) تزيين الأسواق ١ / ١٩٠ .
(٤) الشعر والشعراء ١ / ٢١٥ والأغاني ٦ / ١٣٩ .
(٥) الشعر والشعراء ٢ / ٦٢٢ .
(٦) الأغاني ٧ / ٢٨٤ وتزيين الأسواق ٢ / ٢١٠ مع اختلاف في البيت الثاني .

ثم « ليس معنى هذا أنه حب يلغى الجسد إلغاء تامًّا، فإن هذا لا يتفق مع طبيعة الحياة ولا يستقيم مع واقع الصلة بين العواطف والغرائز فى الطبيعة البشرية[١] . ومن الأمثلة على تلك البدوات قول عبد الله بن العجلان [٢] :

خَوْد رداح طَفْلة ما الفحش من أخلاقها
ولقد ألذُّ حديثها وأَسرُّ عند عناقها

وقول المرقش الأكبر[٣] :

وربَّ أسيلةِ الخدين بِكر مُنعّمةٍ لها فَرْع وجيدُ
وذو أُشر شتيت النبت عَذب نقىٌّ اللون بَرّاق برودُ
لهوت بها زماناً فى شبابى وزارتها النجائب والقصيد

ثانيا : فى العصر الأموى :

شاع الغزل فى العصر الأموى شيوعاً واسعاً إلى جانب الشعر السياسى ، وكانت لذلك الشيوع أسباب اقتضتها الأوضاع السياسية والاجتماعية آنذاك [٤] .

كثرت تقسيمات الدارسين للغزل الأموى ويكاد يستقر رأيهم على نوعيه البارزين الحسى والعفيف . وثمة نوعان آخران قام حولهما الاختلاف وهما الغزل التقليدى ، ونوع آخر اتفقوا على جوهره واختلفوا فى تسميته ونشأته . فالدكتور طه حسين يسميه بالغزل الهجائى ، والحوفى بالكيدى ، وشكرى فيصل بالسياسى ، وكلها فى رأيى مسميات لشىء واحد . أما عن نشأته فيذهب طه حسين إلى أنها كانت فى العصر الأموى وأن عبيد الله بن قيس الرقيات يكاد يكون مبتدعه[٥] . وتابعه شكرى فيصل الذى يعد أصحابه فرعاً من المدرسة العمرية انصرفوا عن السياسة مكرهين فأرادوا

---

(١) الحب المثالى عند العرب ٤٨ .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٩ / ١٠٣ وتزيين الأسواق ٢ / ١٩٢ .
(٣) الأغانى ٦ / ١٣٣ وتزيين الأسواق ٢ / ٢٢٣ مع بعض التغيير .
(٤) يراجع فى هذا : حديث الأربعاء ١ / ١٨٩ — ١٩١ وأبحاث ومقالات للشايب ٢٧٨ وتاريخ آداب اللغة العربية (ط ١٩٢٤) ٢ / ٢٣٦ وتطور الغزل ٢٩٦ — ٢٩٨ .
(٥) حديث الأربعاء ١ / ٢٥١ .

الانتقام من خصومهم به[١]. أما الحوفي فيقول بوجوده في الجاهلية وهو محق في هذا لأن هناك نماذج من هذا الغزل في الجاهلية وصدر الإسلام أيضاً . فقيس ابن الخطيم تغزل بعمرة أخت عبد الله بن رواحة في يوم بعاث[٢] فرد عليه عبد الله متغزلا بأخته ليلى[٣]. وتغزل حسان بن ثابت بليلى بنت الخطيم فأجابه قيس متغزلا بزوجه[٤] . وتغزل كعب بن الأشرف بأم الفضل بنت الحارث وبغيرها من نساء المسلمين حتى قيل إنه آذاهن مما حمل الرسول الكريم على الأمر بقتله.[٥]، وتغزل عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية غزلاً أثار حفيظة أخيها يزيد[٦]، إن ما في الأمثلة السابقة مما كان في الجاهلية ينفي ميلاد هذا الغزل في العصر الأموي . أما بقية اتجاهات الغزل الأموي فهي :

١ ــ الاتجاه الحسي :

يجمع هذا الاتجاه بين الغزل الفاحش الصريح وغير الفاحش ، وقد شاع هذا الغزل في مدن الحجاز وبخاصة في مكة والمدينة ، وكان زعيمه في الأولى عمر ابن أبي ربيعة، وفي الثانية الأحوص الذي كان هو وجماعته أكثر فحشاً من عمر ورهطه[٧] . وكانوا يتغزلون في العربيات وغير العربيات من الإماء والجواري ، وكان لعمر والفرزدق والعرجي مغامرات وقصص فاحش في غزلهم ؛ يقول عمر[٨]:

ثم لانتْ وسامحتْ بعد مَنْعٍ وأرتني كفًّا تزين السوارا

---

(١) تطور الغزل ٢٩٤ و ٢٩٨ .

(٢) طبقات ابن سلام ١٩٠ — ١٩١ وديوان قيس بن الخطيم (بتحقيق ناصر الدين الأسد) ٣٣ .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٣٥ .

(٤) الأغاني ٣ / ١٢ .

(٥) تاريخ الطبري ٢ / ٤٨٨ ومعجم الشعراء ٢٣١ ثم انظر خبر مقتله في الطبري ٢ / ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٦) الأغاني ١٦ / ٣٤ ثم انظر : تاريخ الشعر السياسي . للشايب ١٨٠ .

(٧) انظر : حديث الأربعاء ١ / ٢٦١ و ٢٤١ و ٢٤٢ أيضاً والعصر الإسلامي لشوقي ضيف ١٤٨ .

(٨) ديوان عمر (شرح العناني) ٢٤٤ وانظر أيضا ١٥٤ .

فتناولتها فمالت كغصنٍ حركتـه ريح عليه فحارا
وأذاقت بعد العلاج لذيذاً كجنى النحل شابَ صِرْفاً عقارا
ثم كانت دون اللحاف لمشغو ف مُعنًّى بها صُبوبٌ شعارا[١]
واشتكت شدة الإزار من البُهـ ـر وألقت عنها الرِّيُّ الخمارا[٢]

ويقول العرجي[٣] :

حتى أويتُ إلى بيضٍ ترائبها من ازيّها الحَلي والحناء والكتم[٤]
فبت أسقى بأكواسٍ أُعَلُّ بها أصناف شتى فطاب الطعم والنسم[٥]
يجعلنني بعد تسويف وتفدية بحيث يُثْبتُ غُرْضَ الضامر الوَلَمُ[٦]

أما الغزل الحسي غير الفاحش ففيه كثير من الأوصاف الجاهلية القديمة ، والأوصاف الجديدة حتى قيل إنها تكاد تستوعب المظاهر الحضارية الجديدة في هذه الفترة وتؤرخ للحياة الاجتماعية[٧]. أما الجانب المعنوي فيتضح في الغزل الأموي أكثر مما كان عليه الجاهليون بحيث يتخطى اللمحات والبدوات[٨].

ومن مميزات هذا الغزل عدم ثبات الشعراء على امرأة واحدة ، بل كانوا دائمي النقلة كالنحلة من زهرة إلى أخرى مما دعا إلى كثرة الأسماء عندهم ، كما سار أكثرهم على نهج قصصي شأن بعض الشعراء الجاهليين ، وإن كان بعض الدراسين يعدون عمر بن أبي ربيعة مبتكراً له[٩] محاذاة للدكتور طه حسين الذي استنكر

---

(١) صبوب : مشتاق . الشعار : الدثار .
(٢) البهر : انقطاع النفس .
(٣) ديوان العرجي (بتحقيق رشيد العبيدي وزميله) ٧ ثم انظر أيضاً ١٢ ، ١٨ ، ١٩ وغيرها .
(٤) الكتم : نبات يخلط بالحناء ويخضب به الشعر .
(٥) النسم : النفس .
(٦) الضامر من الإبل : اللطيف الجسم . الغرض الرحل كالحزام السرج .
والولم : هنا الرحل . وشطر البيت كناية عن العناق.
(٧) حديث الأربعاء ١ / ٢٩٥ – ٢٩٧ .
(٨) انظر : الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية (المدينة) ١١١ – ١١٢ .
(٩) منهم عبد الله الطباع في الحب والغزل ١٠٤ .

واستبعد أن يكون امرؤ القيس رائد الأسلوب القصصى ، بدعوة أن رواة إسلاميين متأثرين بعمر والفرزدق أضافوه إلى امرئ القيس[١]. وذهب جماعة من الدارسين مذهباً مغايراً فى الأمر للدكتور طه حسين وجماعته[٢]. ولم يخل هذا الغزل من الوقوف على الأطلال وذكرها والأمثلة على هذا كثيرة فى غزل الحارث بن خالد المخزومى[٣]، وعمر بن أبى ربيعة[٤] والعرجى[٥] وغيرهم . ومن البوادر الجديدة فى الغزل الحسى الأموى كثرة الرسل والإشارة إلى الرسائل الغزلية مع النساء[٦]. وقد تمت هذه الظاهرة الأخيرة واتسعت فى الغزل العباسى وبخاصة عند العباس بن الأحنف كما سيجىء .

٢ — الاتجاه العذرى :

شاع الغزل العذرى العفيف فى العصر الأموى وعرفته أكثر من قبيلة وقد تقدمت الإشارة إلى أنه ليس بوليد العصر الأموى وإلى امتداد جذوره فى الغزل الجاهلى . عرف العصر الأموى عدداً من العذريين فيهم الثابت تاريخياً ، وفيهم من حامت حول وجوده التاريخى الشكوك وما تزال . وكانت لكل منهم قصة حب لا تختلف فى إطارها العام عن قصص العشاق الجاهليين ، وكانت خيوطها تنسج إما بالمرعى أو فى أثناء المرور بديار الأحبة ، ولكنها عندما كانت تصل إلى العقدة تتشعب بها السبل فإما أن يتزوج المحب من محبوبته ، وإما أن يتعذر عليه ذلك فيهيم فى هذه الحال على وجهه إلى أن يلقى مصيره المحتوم . وحتى الذين تزوجوا لم تدم لهم السعادة الزوجية إذ سرعان ما انفصمت عراها لضغوط عائلية تاركة الحب فى القلوب يؤججها . وكان خيال الرواة يأبى إلا أن يجمع بين المحبين — فى بعض الأحيان —

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٢٠٦ — ٢٠٧ ووقع لطه حسين فى حديث الأربعاء (١ / ٢٣٣) ما يتناقض مع ما قاله فى الأدب الجاهلى فى هذه المسألة .

(٢) من هؤلاء شكرى فيصل فى تطور الغزل (٢٨٤ و ٣١٤) والدكتور شوقى ضيف فى العصر الإسلامى ٣٥٤ .

(٣) الأغانى ٣ / ٣٣٦ و ٣٣٨ .

(٤) ديوان عمر ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ وغيرها .

(٥) ديوان العرجى ١١ .

(٦) انظر على سبيل المثال : ديوان عمر ٤١٩ وديوان العرجى ٣ ، ١٢ .

من جديد بأساليب ووسائل ظاهرة التكلف والغرابة لما فيها من خروج على أبسط قواعد العرف والتقاليد العربية .

يتصف شعر العذريين بوضوح الحب والحرقة والألم والإخلاص وصدق العواطف ونبلها ، ولكثرة ما تحدث الدارسون فى هذه الأمور نمسك عن ضرب الأمثلة لها منتقلين إلى مسألة أخرى هامة لاحظناها عند الجاهليين ، وهى عدم خلو الغزل العذرى من إشارات حسية مادية ومن الأمثلة عليها قول جميل [١] :

فيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة كليلتنا حتى نرى ساطع الفجر
تجود علينا بالحديث وتارةً تجود علينا بالرُضاب من الثغر
فياليت ربى قد قضى ذاك مرة فيعلم ربى عند ذلك ما شكرى

وله إشارات أخر غير هذه فى ديوانه أيضاً[٢]. أما قيس بن ذريح فقال[٣]:

يا أكمل الناس من قَرْن إلى قدم وأحسن الناس ذا ثوب وعريانا
نعم الضجيع يُعَيْد النوم تجلبه إليك ممتلئاً نرماً ويقظانا

وليس القصد من هذه الأمثلة وغيرها التشكيك فى الغزل العذرى أو نفى العفة عن أصحابه ولكن لإعطاء فكرة سليمة عنه وعنهم ، فالحب العذرى لا يخرج عن أن يكون « صراعاً بين الجسد والروح يتحول فى نفس العاشق — لأسباب شخصية أو اجتماعية أو اقتصادية — إلى رغبة مكبوتة . وهى رغبات كان العشاق العذريون يتسامون بها فوق مستوى الغرائز ويرتفعون بها فوق مستوى الشهوات . ويستعلون بها فوق رغبات الجسد » [٤] . ويذهب أحمد عبد الستار الجوارى إلى أن الحب العذرى لا يفطم الحاجة الجسمية ، ولكنها عنصر ثانوى يدخله بعد تمكن الألفة ، ومن هنا امتاز الحب العذرى على الحب الجسدى الذى يبدأ من الشهوة[٥]. أما

---

(١) ديوان جميل (بشيريميت) ٢٨ .
(٢) انظر ديوان جميل السابق ١٦ ، ٢٢ ، ٣٩ .
(٣) الأغانى ٩ / ١٩٩ .
(٤) الحب المثالى عند العرب ٤٩ .
(٥) الحب العذرى ٣٥ .

الحوفى فيذهب إلى أنه ليس بخالص الروحانية بحيث لا يخلو حب الرجل للمرأة من شوائب جسدية إعجاباً بجمالها واشتياقاً للمسها وتقبيلها[١] .

كان للاتجاه العذرى روافد فى مدن الحجاز عند الفقهاء والزهاد ، ففى مكة كان عبد الرحمن بن أبى عمار الملقب بالقسّ يحب سلامة الجارية التى قيل إنه عشقها بعد أن سمع غناءها فأعجبه . وفى الأغانى روايات فى طبيعة ذاك الحب وأشعار للقس تدل على عفته[٢] . أما فى المدينة فكان عروة بن أذنية[٣] . وعبيد الله بن عتبة[٤] .

٣ — الاتجاه التقليدى :

وجد فى العصر الأموى كذلك الغزل التقليدى الذى لا يعدو أن يكون صورة مكررة عن الغزل القديم عند كثير من الشعراء ، من مثل الأخطل والفرزدق وجرير والراعى النميرى وغيرهم ممن انحصر غزلهم فى مقدمات القصائد ، فوقفوا على الأطلال وديار الأحبة ووصفوها ودعوا إلى تحية أهلها ومخاطبتهم[٥] ، وأكثروا من ترداد الأسماء المعروفة للنساء والأمكنة[٦] ؛ كما أكثروا من ذكر العذال والوشاة والرقباء ، وشكوا من نقض العهود وإخلاف المواعيد ، وتألموا من المماطلة والتسويف ، وحنوا إلى أيام الشباب ، وذموا الشيب لأنه مدعاة لصدود النساء . والقارئ لهذا الغزل لا يجد فيه أثراً لعاطفة قوية أو تعبيراً عن ألم حقيقى ، أو إحساساً بنفس مجربة إلا فى القليل النادر وفى مطالع قصائد جزير خاصة . وربما قصر الشعراء فى هذا أو اتجهوا ذاك الاتجاه لعوامل متعددة سياسية وحزبية وشخصية شغلت أكثرهم عن الإجادة فى الغزل ، فراحوا يقولون فيه كأى فن من فنون الشعر الأخرى ليتسنى لهم القول فى أكثر الأغراض ، ولذلك جاء غزلهم تقليدياً متكافاً ولسان حالهم فيما نذهب إليه قول لجرير : « لولا ما شغلنى من هذه الكلاب لشببت تشبيباً تحن منه

---

(١) الغزل فى العصر الجاهلى ١٩٧ .
(٢) انظر : الأغانى ٨ / ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ .
(٣) أخباره فى الأغانى (ساسى) ٢١ / ١٠٥ — ١٠٩ .
(٤) أخباره فى الأغانى ٩ / ١٤٠ — ١٥١ ونكت الهميان ١٩٨ .
(٥) انظر مثلا : ديوان جرير (طبعة صادر ١٩٦٠) ١٩٢ : ٢١٦ .
(٦) ديوان جرير ٧٣ : ١١١ ، ١٧٤ ، ٣٧١ على سبيل المثال .

العجوز إلى شبابها »[١] .

جمع شعراء هذا الاتجاه فى غزلهم بين أكثر الاتجاهات المتقدمة واخذوا من كلّ بطرف ، فكان فيهم العفيف كجرير الذى جمع بين حسن التشبيب والعفة بعكس الفرزدق الذى كان فاسقاً ،وكان يقول عن جرير « ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى ، وما أحوجنى إلى رقة شعره كما ترون »[٢].

من أحسن أمثلة التقليد فى الاستهلال والموقف قصيدة للأخطل قالها على نمط (بانت سعاد) لكعب بن زهير فى مدح الرسول الكريم ، قال الأخطل[٣] .

بانت سعاد فنى العينين مُلْمول من حبها ، وصحيح الجسم مخبول[٤]
فالقلب من حُبِّها يعتاده سقم إذا تذكّرتها والجسم مسلول

وفيها أوصاف حسية مادية للمرأة التى تغزل فيها لا تختلف عن أوصاف الجاهليين :

غراء فرعاء ، مصقول عوارضها كأنّها أحور العينين مكحول
كأنّها واضح الأقراب فى لِقَحٍ أسما بهن وعزّته الأناصيل[٥]

ومن أمثلة التقليد أيضاً دعوة الفرزدق فى مطلع قصيدة له إلى الوقوف على أطلال المحبوبة ، وقد جمع فيها بين دعوات ووقفات ثلاثة من الشعراء الجاهليين وهم : امرؤ القيس ، وعنترة ، وطرفة فقال[٦] :

ألما على أطلال سعدى نسلم دوارس لما استُنْطِقت لم تكلّم
وقوفاً بها صحبى على ، وإنما عرفت رسوم الدار بعد التوهم
يقولون لا تهلك أسىً ولقد بدَتْ لهم عبرات المستهام المتيّم

---

(١) و (٢) الشعر والشعراء ١ / ٤٦٦ .
(٣) شعر الأخطل (بعناية الأب أنطون صالحانى) ١٢ — ١٤ .
(٤) المُلمول : المرود الذى يكتحل به . سمى بذلك لأنه يقلب فى العين عند الكحل .
(٥) واضح الأقراب : حمار الوحش. الأقراب : الخواصر . اسما بهن : لزم السمارة . عزته الأناصيل : دخلت فى أنفه وهى ما نصل من البهمى وهو شوك السنبل .
(٦) ديوان الفرزدق (طبعة بيروت ١٩٣٣) ١٩٩ .

وكان الفرزدق يجمع فى غزله أيضاً بين الفحش والوصف الحسى ، فنى شعره أكثر من مغامرة وقصة تخللها كثير من الأوصاف الحسية إلى جانب المباهاة بالمغامرة والقصص الفاحش[1] .

(١) انظر ديوانه ٥٣ ، ١٤٥ ، ١٥١ على سبيل المثال .